إدوارد سعيد

ادوارد سعيد يرمي حجرة على الجدار الاسرائيلي

ريبورتاج نصّي

حيدر سعيد

لقد قصدتُ أن يكون كتاب (الاستشراق) جزءاً من تيار فكري سابق الوجود، هدفه تحرير المثقفين من أغلال أنظمة من نوع الاستشراق. كذلك أردتُ أن يستفيد القرّاء مما قمتُ به لعلهم ينتجون دراسات جديدة خاصة بهم، تكون كفيلة بإنارة التجربة التأريخية للعرب والآخرين على وفق طراز كريم ومكين. لقد حدث ذلك، دون ريب، في أوربا والولايات المتحدة واستراليا وشبه القارة الهندية والكاريبي وايرلندا وأمريكا اللاتينية وأجزاء من أفريقيا. وانني بالغ السعادة والرضا لأن كتاب (الاستشراق) شكّل، في الغالب، فارقاً في الدراسات النشطة للخطابات الإفريقية والهندية، وفي تحليل تأريخ التابع، وفي اعادة تجسيد ما بعد الكولونيالي في الانثروبولوجيا والعلوم السياسية وتأريخ الفن والنقد الأدبي والعلوم الموسيقية، فضلاً عن التطورات الجديدة الهائلة في الخطاب النسوي وخطاب الأقليات. غير أن الحال في العالم العربي لم تكن هكذا، في حدود ما أعلم، لأن كتباً من نوع (الاستشراق) تُفسّر بوصفها ايماءات دفاعية مع أو ضد (الغرب)، أقل مما تُفسّر بمعنى فائدتها الإنتاجية. وذلك يعود جزئياً، الى أن عملي يعدّ بحق- أوربي التمركز في نصوصه، وان معركة البقاء الثقافي تستحوذ على كل انتباه.

ادوارد سعيد

(1994)

يحدّد ادوارد سعيد ويفسّر - في هذا النص الافتتاحي وفي نصوص أخرى كثيرة، نمط القراءة التي لاقاها كتابهُ (الاستشراق) في العالم العربي. ولعلهُ كان يطمح - الى لحظة موتهِ التراجيدي - أن تتعدل هذه القراءة، بما يجعلها أقرب الى (القصد) الذي أراده. وقد فُهم هذا القصد في أنحاء كثيرة من العالم، وبما يجعلها ذات (فائدة إنتاجية) - بتعبيره - وقد ظلت هذه القراءة حبيسة أطر ضالّة. ولكن، كيف تتعدل هذه القراءة؟ هل يكفي التنبيه على ضلالها؟ هل نبطل أطرها الضالة؟ أم نحتاج إلى (وسيط قرائي) يقدم لنا سعيد بكيفية جديدة؟

اللحظة الملائمة للموت

بدا موت إدوارد سعيد كأنه انتحار، أشبه بانتحار السيّاب أو ميشيل فوكو. فبغرابة شديدة، مات هؤلاء الثلاثة في لحظة ظهر فيها أن ما يملكون من كلمات قد انتهى، وأن العصر الجديد لم يعد ملائماً لهم، ولذلك، سفحوا أنفسهم أمام مفاصله، لا ليدخلوا متحف الأفكار، بل لتبقى أفكارهم طازجة دائماً. فأن يتقدم العمر لأكثر مما ينبغي يعني أن يدفعوا بشكل (سلفي) عما قد يموت. ولذا كان الانتحار - بطريقة الرفض للزمن لكل منهم - عملاً باسلاً، سيجعل الأفكار تدفع عن نفسها بحداثة.

أسأل نفسي، وأنا أكتب هذه الكلمات، عن الوجهة التي يمكن أن تتجه إليها الكتابة عن إدوارد سعيد في لحظة انتحاره التراجيدي. ها هو يضع نقطة في آخر السطر، ويكمل نص حياته، ليكون بالإمكان - وقد أفحمتنا البنيوية بضلالاتها - أن نربط آخر مقالة نشرها في أواخر شهر آب من سنة (2003) بكتابه الأول (جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية) الصادر سنة (1966)، وأن نعضد كتابه (بدايات) الصادر سنة (1975) بكتابه الأخير (توازيات ومفارقات) الذي ألفه بالاشتراك مع الموسيقار الاسرائيلي دنيال بارنباوم وصدر قبل أشهر من وفاته. وهكذا.

قد تكون الكتابة عن سعيد رثاء لـ(المحتمل)، أيضاً. عالم لم ينجزه وكان بالإمكان أن يكون نصاً فريداً آخر، لموقفه المؤجل مثقفاً مناضلاً ومكافحاً... للدروس الانتلجنسيا التي كان يلقيها بوصفه صوتاً رسولياً. لكنه انتحر في مفصل التاريخ، ليتخلص من براثن (السلفية)، ولتدفع الأفكار عن نفسها بحداثة، وترك مشكلة مطرية: مشكلة القراءة الضالة.

سعيد .. محنتنا الكبرى

يتعلق سعيد بسيرتي القرائية. فثمة (رحلة نظرية) دائماً تخضع النظرية معها للفضاء المتعين للقراءة. فلم يكن سعيد نصاً معلقاً في الفضاء، ولا أنا قارئ معلق في الفضاء. إنه يمتزج بالقوانين العسيرة التي تحدد حركتي كمثقف عراقي، وعربي، ومسلم، كائن في جناح المحنة.

فكان سعيد نصاً متوثباً أمام محنة المثقف العراقي بإزاء السلطة الدكتاتورية، وكان نصاً حاضراً أمام العواطف الديماغوجية التي عصفت بالانتلجنسيا العراقية، وكان نصاً موجعاً وقد وضعنا أمام (مديونية أخلاقية) للولايات المتحدة، التي تعني - من بين ما تعني - (الغرب)، الضديد (الأزلي) لكل ما نحمل: الشرقية، والعراقية، والعروبة، والإسلام. وكان نص سعيد يتوسط جدالاً غوغائياً انجر إليه مع مثقفين عراقيين حول الموقف من الولايات المتحدة وسياساتها والحرب والشرعية الدولية، وقد بدا سعيد - بسطحية شديدة - مؤيداً للدكتاتورية، لأنه يناهض الحرب، في وقت كان العالم كله يفكر بمنطق ثنائي: إذا كنت ضد الحرب فأنت مع صدام حسين. وبين هذين القطبين، يتلاشى المثقف والنقد وإرادات الهيمنة ومنطق المصالح وسياسات الهوية.

فأن نكتب عن سعيد الآن، وفي وسط شديد الغوغائية، يعني أن نكتب عن (قصده الحقيقي)، وأن نبطل القراءة العربية الضالة، ولكن، أن نعيد هيكلة أحد أكثر النصوص أهمية وحراجة عن المثقف وأدواره، في وقت نعيش فيه نحن المثقفين العراقيين، محنتنا الكبرى: محنة الاختيار والأداء والوطنية والعلاقة بالآخر، كل هذه التحديات التي انفجرت مرة واحدة ومن دون تمهل.

تنميط (الاستشراق)

كرس كتاب (الاستشراق) الصادر سنة (1978) قراءة (منمطة) لإدوارد سعيد، ذات ثلاثة أبعاد:

•ثقافوي، يتمثل في أن هذا الكتاب هو دفاع منهجي عن الشرق والعرب والإسلام.

•وسياسي، يتمثل في أنه لا ينفصل عن الهوية الفلسطينية لسعيد. ويستند هذا الفهم إلى النشاط السياسي الذي مارسه دفاعاً عن القضية الفلسطينية منذ نهاية الستينيات، ويتعزز مع صدور كتابه (القضية الفلسطينية) سنة (1979)، أي بعد سنة واحدة من صدور (الاستشراق).

•ونظري، في كون هذا الكتاب ذا صلة نظرية صميمة بعمل المفكر الفرنسي ميشيل فوكو.

لقد انشغل سعيد نفسه بملاحقة هذه القراءة المنمطة، غير أنه لم يقترح تصنيفاً لأبعادها على هذه الشاكلة، فقد انشغل، على نحو خاص، بالبعد الثقافوي. يقول:

"لقد اتهم كتاب (الاستشراق) بالعداء للغرب، وإني لأشعر بأسف بالغ لذلك. فهذه الفكرة تنهض على جزأين: أولهما الزعم المنسوب إليّ، القائل بأن ظاهرة الاستشراق هي مجاز مجتزأ، أو رمز مصغر للغرب بأسره، ولذلك، وعلى وفق هذه الحجة، فإن الغرب بأسره هو عدو للشعوب العربية والإسلامية. أما الجزء الثاني، وهو ليس أقل إفراطاً، فهو أن الغرب والاستشراق المفترسين قد انتهكا حرمة الإسلام والعرب. وما دام الأمر هكذا، فإن وجود الاستشراق والمستشرقين يؤخذ ذريعة للقول بنقيضه المكافئ والمقابل: أن الإسلام تام، وأنه (الحل الوحيد)، إلى ما سوى ذلك. وبكلمة موجزة: أن تقوم بنقد الاستشراق، على نحو ما فعلتُ في الكتاب، يعني أن تقف في الصف الساند للإسلاموية وللأصولية الإسلامية. وهكذا، كان قدر كتاب (الاستشراق) محظوظاً وعاثراً في آن معاً، فبالنسبة للذين يتحسسون وطأة التعدي الغربي بقلق وضنك في العالم العربي والإسلامي، تمثّل مغزى الكتاب في أنه الذي يعطي ردّاً مضاداً جدياً على غرب رفض على الدوام الإصغاء للشرقي. وهكذا أيضاً، عدّ (الاستشراق) أقرب إلى الشاهد على وضعية التابع... وضعية معذبي الأرض إذ يعيدون الإفصاح عن أنفسهم، وعدّ، كذلك، سِفراً للجراح وسجلاً للعذابات التي ساد الشعور بأن تلاوتها استحقاق حان أجل رده إلى الغرب. وإنني أبدي الأسف بإزاء هذا التشخيص البالغ البساطة، لأن الكتاب تحليل نقدي لتعدي الثقافات للسلطة في استعمالها للمعرفة لغرض توطيد مواقعها. بمعنى أن حس المواجهة المشحونة بين عالم عربي يتحدد على نحو عاطفي غالباً وآخر غربي أكثر تمرساً في العاطفة، آل، في نهاية المطاف، إلى طمس وتفريغ وإزاحة حقيقة أن كتاب (الاستشراق) صمّم لكي يكون دراسة في التطبيق النقدي، وليس تأكيداً لهويات متحاربة ومتناحرة"

ولكن، لا يقلل خطورة عن هذا التنميط الثقافوي التنميط النظري الذي وضع فيه إدوارد سعيد بوصفه (تابعاً) نظرياً لفوكو. فإلى وقت قريب، جمع سعيد إلى جانب فوكو في سائر أدبيات النظرية النقدية المعاصرة. وقد لا يتعلق الأمر بكتاب (الاستشراق) فقط، بل إنه يرجع حتماً إلى كتاب سعيد (بدايات: القصد والمنهج)(1975)، الذي خصص فيه مساحة أساسية لفكر فوكو. وقد فهم هذا الكتاب في الثقافة الأمريكية بأنه أحد الكتب التي تعمل على تقديم نزعات النقد الفرنسي، وهي مسألة شغلت الثقافة الأمريكية كثيراً في ما بين أواسط الستينيات وأواسط السبعينيات. لقد شرح سعيد نفسه الحالة في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب (بدايات) الصادرة سنة (1985)، فهو يقول:

"وضع هذا الكتاب ضمن الخط النقدي في الثقافة الغربية، الذي يمتد من فيكو إلى فوكو، ويمر بماركس ونيتشه وفرويد. وقد عدّ واحداً من سلسلة الكتب النقدية التي شكّلت ما عُرف بـ(النقد الغريب) أو (النقد الخارق)، وهو نقد لا يلتزم بالتقاليد ولا بأعراف الحس المشترك، بل يشدّد على ولائه للثقافة التاريخية والفيلولوجية"

من هنا، عدّ سعيد في طليعة المفسرين الأمريكيين للفكر الفرنسي. وقد تعزز هذا الاعتبار مع صدور (الاستشراق). غير أن الجمع بين سعيد وفوكو ليس تبسيطاً أكاديمياً، بل هو حقيقة تخص المرجعية النظرية لكتاب (الاستشراق). وقد وصف سعيد نفسه، بعد وفاة فوكو، بأنه (تلميذ له). وإذا كانت هذه العبارة تتضمن زخماً رثائياً، فإنها اعتراف صادق كذلك. لنلاحظ أن سعيد انطلق من فكرة (السلطة)، التي كانت الموضوع المركزي في سائر ما كتب فوكو، ليكتشف آلياتها وستراتيجياتها من خلال ما تقيمه من أشكال معرفية. فـ(المعرفة) الاستشراقية تبطن (سلطة) الغرب الذي اكتشف الشرق، تماماً كما تبطن (العلوم الإنسانية)، من حيث هي معرفة، (السلطة) البرجوازية التي اكتشفت (الإنسان) في لحظة من لحظاتها. فـ(الشرق) ابتكار، كما أن (الإنسان) ابتكار، و(المعرفة) الاستشراقية هي رفع هذا الابتكار إلى منزلة الحقيقة، كما أن (العلوم الإنسانية) هي رفع لمبتكرها (الإنسان) إلى منزلة الحقيقة.

لقد كان كتاب (الاستشراق)، بحق، عملاً فوكوياً في أفكاره وخططاته. وربما لم يتح لأحد قبل إدوارد سعيد أن يطبق فرضيات فوكو - ولا سيما فرضياته عن الخطاب وعلاقة المعرفة بالسلطة - بهذه التقنية العالية. فقد كانت المادة التي عمل عليها - وهي المادة الاستشراقية - أنموذجاً جلياً وكبيراً للتمثيلات المعرفية التي تتضمن في داخلها أشكالاً سلطوية.

المقاومة ... أبداً

هكذا كان يقدم سعيد في النظرية النقدية المعاصرة: تتحدد أهميته، فقط، في أنه طبق أفكار فوكو عن (المعرفة والسلطة) بحرفية عالية. وأن ندخل إلى النظرية النقدية المعاصرة من مداخلها الإطارية يعني أن نسلم بتبسيطاتها واختزالاتها وعجالتها وفقرها.

غير أن لسعيد كرونولوجيا فكرية، أكثر تعقيداً من هذا التطور السالف. فكتاب (الاستشراق) لم يكن بالنسبة له سوى تمرين في النظرية. أما سعيد المنظر، فبدأ يتخلق بعد (الاستشراق)، بالضبط في اللحظة التي وضع فيها السلسلة عن ثلاثيته: (الاستشراق)-(القضية الفلسطينية)-(تغطية الإسلام)، وانتهى لديه اكتشاف النظرية بممارستها، ليكون بإمكانه أن يكتشف نواقصها المحتملة.

فمع سنة (1982)، بدأ سعيد نقده النظري لفوكو، وتحديداً في بحثه الشهير (رحلة النظرية) الذي أعاد نشره في كتابه (العالم والنص والناقد)(1983). غير أن سؤال (رحلة النظرية) لم يكن لسعيد سؤالاً نظرياً حسب، إنه سؤال شخصي وفقرة فريدة من سيرته الذاتية، فما معنى أن تنتقل نظرية فوكو من فرنسا إلى الولايات المتحدة؟ بل ما معنى أن تنتقل نظرية فوكو إليه؟ استغرق الإجابة على هذا السؤال بناء الهيكل النظري لسعيد، وسنوات طويلة وطويلة، لم تنته إلا بنهاية حياته.

لقد اكتشف سعيد أن فوكو كان يتصور التاريخ كأنه ذو طرف واحد، هو الطرف الذي يمارس الهيمنة. أما الطرف الآخر (المغيب) فهو طرف سلبي، في حين أن حركة التاريخ هي تفاعل معقد بين الطرفين. يقول ناقداً فوكو:

"إن التاريخ ليس إقليماً ناطقاً بالفرنسية متجانس التكوين، بل تفاعل معقد بين اقتصادات ومجتمعات وأيديولوجيات متفاوتة"

ومفهوم (السلطة) الفوكوي نفسه، الذي سيعود إليه سعيد في بحثه (تصور فوكو للسلطة)(1986)- مفهوم اختزالي، فهو يتجاهل الجدل المركزي للقوى المتعارضة الذي يستند إليه المجتمع الحديث. فـ(السلطة)، لدى فوكو، "هيمنة من دون وساطة" كما يقول. إنها بدقة، مفهوم أحادي الجانب:

"لم يلاحظ فوكو عاملاً مهماً آخر هو القوة للقاومة الوثّابة لطغيان السلطة، التي تقوم باختيار مواقع على درجة عالية من التأثير والتركيز كأداة دافعة على تواجدها، وعلى جميع الأصعدة، وتؤكد حضورها الدائم، وكثيراً ما تفلح في عرقلة اندفاع طوفان واستبداد السلطة، هذا إذا لم توقفه تماماً. لقد فكر فوكو في السلطة من جهة إمكانية تحققها، لا من جهة امكانية معارضتها، ومن ثم، كان اهتمامه بها اهتماماً نقدياً وصفياً، لا تعديلياً ثورياً"

وهنا، يضيف سعيد نظرياً، مبدأ أساسياً في حركة التاريخ، هو (المقاومة)، الذي سيموضعه في كتابه (الثقافة والإمبريالية)(1993) باسم (الحركة الطباقية contrapunal للتاريخ) مستعيراً مفهوم (الطباق الموسيقي)، الذي يعني نغمتين متضادتين تشكلان وحدة لحنية واحدة. هكذا يبدو التاريخ لإدوارد سعيد الموسيقار: تداخلاً صوتياً بين إرادة هيمنة ومقاومتها، السلطة ومعارضتها، السرد الإمبراطوري والسرد المضاد.

وبعد ذلك، فـ(المقاومة) ليست مفهوماً نظرياً حسب، بل إنها اختيار أخلاقي. ولذلك، يكون ذا مغزى كبير أن نحدد أن سعيد بدأ بطرح (مسألة المقاومة) في وقت صعدت فيه (النزعة النصية Textuality) إلى النظرية النقدية الأمريكية. يقول:

"اكتفت هذه النظرية من كونها حركة تدخلية عابرة لحدود النصوص، ودخلت في تيه (النصية)، فصارت، الآن، تتقبل مبدأ عدم التدخل، ومن دون أي تحفظ"

لقد هيمنت فلسفة النصية البحتة وعدم التدخل النقدي على النقد اليساري واليميني معاً، فكانت انتصاراً لما يسميه سعيد (أخلاق الاحترافية Professionalism)، التي حرصت وعملت تدريجياً على أن يبقى النقد بعيداً عن أي موقف سياسي أو أخلاقي:

"إننا بلغنا الآن تلك المرحلة التي يتعمّد فيها التخصص وارتداء عباءة الاحتراف. ففي ذلك العالم المعزول والآمن نسبياً، لا وجود على ما يبدو، لأية صلة بعالم الأحداث والمجتمعات. وعوضاً عن ذلك، صار النقد المعاصر عبارة عن مؤسسة للإتيان، جهاراً، بتوكيد قيم ثقافتنا المصطفاة، أي ثقافتنا الأوربية. وأما النتيجة فكانت انفصام النقد انفصاماً منظماً، لا بل محسوباً، واستحالته إلى حلية لتزيين كل تعاملات قوى المجتمع الصناعي: سطوة نزعة التعسكر، وحرب باردة جديدة، وتجريد المواطنين من التسيّس، والإذعان المطلق من لدن طبقة المفكرين التي ينتمي إليها النقاد"

وبالتالي، ينبغي أن يكون للنقد مغزى سياسي وأخلاقي جوهري. وهنا، وفي قلب هذا المعنى، يكتب سعيد عبارته الطلقسية:

"ينبغي للنقد أساساً - وسوف أكون هنا في غاية الوضوح - أن يكون مشجعاً للحياة، ومعارضاً لأي شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والظلم، وقائماً في قلب المجتمع المدني، وعاملاً لمصلحة الخيارات البديلة والنوايا البديلة، التي يكون دفعها أشواطاً إلى الأمام عبارة عن التزام فكري وإنساني جوهري".

من المقاومة إلى الدنيوية، ... وبالعكس

هكذا، يتحدد الهيكل النظري النقدي لسعيد: إن فكرة أن النص له أدبية خاصة وآلية انبناء ذاتي فكرة تحاصر الأداء السياسي للنص. ومن ثم تنبغي العودة إلى ربط النص بوقائع الخطاب: بالتاريخ والأفكار والمفاهيم والأحداث. وباختصار تنبغي إعادة النص إلى (العالم): عالمه الأرضي، بما يتضمنه من مقاومة ومناهضة ونقد. وهذه العودة (عودة النص إلى العالم أو الدنيا) تحدد أشهر مفهومين نقديين لسعيد (دنيوية النص) و(النقد الدنيوي). يقول:

"إن النصوص هي أحداث إلى حد ما، وهي فوق هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة الإنسانية ومن اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها، حتى حين يبدو عليها التنكر لذلك كله. بمعنى أن الوقائع المتعلقة بالقوة والسلطة، وبضروب المقاومة التي يبديها الرجال والنساء والحركات الاجتماعية والسلطات والمعتقدات التقليدية، هي الوقائع التي تجعل من النصوص أمراً ممكناً، وهي التي تقدمها لقراء تلك النصوص"

ويقول:

"إن للنصوص طرقاً في الوجود، فهي - في أسمى شكل لها - تبقى دائماً فريسة الوقوع في شراك الظرف والزمان والمكان والمجتمع. إنها باختصار في الدنيا ولذلك إنها دنيوية".

من هنا يقترح سعيد وبإصرار أن تكون وقائع النص هي مثار اهتمام النقد والوعي النقدي.

المثقف.. أيضاً

قد يكون هذا التصور النقدي مرتبطاً بفوكو، مرة أخرى فهو - بمعنى ما - ترحيل آلية انتاج الخطاب إلى النص الأدبي، ولكنه - قبلاً - يعني أن على الناقد أن يكون ذا التزام سياسي وأخلاقي. فإذا كانت (مسألة المقاومة) هي نقطة الافتراق الجوهرية بين سعيد وفوكو، فإن سعيد سيختلف مع فوكو مرة أخرى، لأنه لم يكن ذا خيارات أو أولويات سياسية أو أخلاقية، كما يقول، في حين تمثل ذلك كله - ودفعة واحدة - في شخص تشومسكي، المثقف الملتزم الذي يدافع عن إمكانية (قيم مطلقة) مؤسسة على نظام (الفطرة) البشرية.

غير أن هذه المسألة لم تكن انتقالاً نظرياً يسيراً من فوكو إلى تشومسكي، بل إنها اكتشاف نظري، جعل سعيد يتخذ موقفاً وسطياً بين طموحه النظري (الفوكوي) والتزامه (التشومسكي). بل بالأحرى: إنه تخذ موقفاً وسطياً بين تاريخية المعرفة ولاتاريخية القيمة، بين نسبية الثقافة ولا نسبية الطبيعة، وبالتالي، سيكون الدفاع عن (القيم المطلقة) واجباً أولياً من واجبات المثقف على نحو ما يتصور سعيد. يقول في عبارة طلقسية أخرى:

"ينبغي للمثقف أن يبقى أميناً لمعايير الحق"

مثلما سيكون عليه أن يهشم التعيينات الأونطولوجية والجغرافية والتاريخية الجاهزة والخيالية في آن معاً، مثل (الشرق) و(الغرب) ومثل (الهوية) على نحو أول.

لقد وجد سعيد نفسه مثالاً مكثفاً للهويات السائلة التي ستطبع العالم المعاصر، ذلك الذي سيطلق عليه - في طابعه الهووي المختل: (العالم ما بعد الكولونيالي). لقد كان سعيد (خارج المكان)، فهو من فلسطين وليس منها، وهو أمريكي وليس كذلك. إن الهوية عملية تاريخية واجتماعية وفكرية وسياسية. إنها ابتكار أيضاً، وكسائر الابتكارات، تجسدت (الهوية) في مفاهيم ذات طابع (قدسي) كـ(الاستقلال السياسي) و(الدولة الوطنية) و(القومية) لتجعل منا - نحن حملتها التاريخيين - في معزل خارج التاريخ.

مرثية للبطل القومي!

وبعد ذلك... بعد كل ذلك، يموت سعيد بطلاً قومياً، لأنه أحد انتصارات العقل العربي.

ولكنه يموت غريباً، في اللحظة التي نفكر فيها بعربيته وبأصوله العربية، وقد أراد أن يعطينا درساً في الهويات السائلة والرجراجة.

ويموت تراثه معه غريباً، لأن الهوية ومفاهيمها تحبسنا داخل سجن الذات والخصوصية والتاريخ المجيد، فلن يكون بإمكاننا أن نصل إلى فضاء الحرية، حيث تخترق جلودنا الرياح... كل الرياح.

إنهُ لذو أهمية خاصة - بالنسبة لي كعربي وغربي - أن ينجلي أن فكرة التعددية الثقافية أو الهجنة - التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم - لا تؤدي بالضرورة دائماً إلى السيطرة والعداوة، بل تؤدي إلى المشاركة وتجاوز الحدود، وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة. وإنه لعلى قدر كم من الأهمية أن نتذكر ذلك في وقت يحاول فيه متطرفون مثل صموئيل هنتنغتون أن يقنعوا العالم بأن (صدام الحضارات) أمر محتوم لا مفر منه.

غير أن تفكيك الاستعمار ومناهضة الإمبريالية تظلان، إلى حد مأساوي، غير منجزتين حين تصبح رموز الاستقلال القومي أهدافاً قائمة بذاتها. إن جماع التاريخ الحديث للعالم، الذي كان خاضعاً فيما مضى للاستعمار - من شبه القارة الهندية وأندونيسيا والعالم العربي إلى معظم أفريقيا - هو التاريخ المؤسي لهذا التقديس الأعمى الضال للدولة/ الأمة، بدكتاتورييها المتغطرسين ومجتمعاتها المعسكرة المعادية للديمقراطية وبرُهابها من الأجانب وبمشهدياتها الطبيعية التي يسودها القحط الثقافي. ومع ذلك، وضمن المقاومة الوطنية للإمبريالية نفسها، كان هناك دائماً تيار نقدي، أبصر المخاطر الكامنة في القومية. إنه - كما قال فرانز فانون، بكل تلك النبوئية وبكل ذلك الإيجاز الملغز أيضاً - سيكون ضرورياً، ضرورة مطلقة، أن يتحول الوعي القومي إلى وعي اجتماعي، وذلك أن التحرير - كما قال فانون أيضاً - هو صناعة أرواح جديدة، لا مجرد استبدال شرطي أبيض بآخر أصيل.

ادوارد سعيد

(1997)